في الأدب الغربي

الشاعر المحتضر

قصيدة من عبقريات لامرتين

ترجمها وأهداها إلى روح شوقي

احمد حسن الزيات

تحطمت كأس عمري وهي مُترعة، وتصرمت حياتي زفرات في كل نَفَس، وعَيَّ بامنيتها كما ما أرسلت من عبرات وحسرات، وقرع الموت بجناحه الناقوس الباكي عليَّ مؤذناً بساعتي الأخيرة، فليت شعري أنوح أم أغني؟؟!.

* * *

لأغنَّ مادامت أناملي لا تزال على القيثار، لأغن مادامت المنون تلهمني، وأنا على باب الآخرة ماتلهم الجمة من صرخة موزونة وأنة ملحونة، وإذا لم تكن النفس شيئاً غير الحب والألم فلم لا يكون وداعها لحناً قدسياً؟؟!.

* * *

ان القيثار يبعث أجمل أنغامه حين ينكسر، والمصباح يرسل أبهى أضوائه حين يخمد، والجمة ترفع طرفها الى السماء حين تسلم الروح، والانسان وحده يرجع البصر إلى الوراء ليعد أيامه ويبكيها!!

وما هذه الأيام التي تستدر حوالب عينيه؟؟ شمس تشرق متقطعة، وساعات تمر متشابهة، وخير تمنحه ساعة فتسلبه أخرى، ثم عمل يتلوه راحة. وألم يتبعه أحياناً حلم!

ذلك هو اليوم. ثم يمحو آيته الليل!

* * *

ليتك ذلك الذي أشد على حطام الدنيا حرصه، وتعلق بأمانيها سببه، ثم يرى حبل مستقبله يَنْبَتُّ. وظل آماله يتقلص! أما أنا فأترك الدنيا في سهولة ويسر لأن جذوري منها كجذور النبتة الرخوة من الأرض، تهب عليها رياح المساء فتقلعها!

* * *

الشاعر أشبه شيء بالطيور العوابر، لا تعشش على الضفاف ولا تقع على غصون الغاب. وانما تهدهد نفسها على متون الموج، ثم تمر مغردة على بعد من الشاطىء، فلا يعرف الناس من أمرها، غير مايسمعون من صوتها!

* * *

أيداً لم تدرب يدي على الوتر الرنان يد مخلوق: لأن ماتلهمه روح الله لا تُعلِّمه يد انسان. فالجدول لا يتعلم كيف يجري في المنحدر، والنسر لا يتعلم كيف يشق بجناحيه الهواء، والنحلة لا تتعلم كيف تؤلف العسل!

* * *

الناقوس تفزعه القوارع في مكانه العالي ليوم بشرى أو يوم نعي، فينوح مرة ويشدو مرة، وانا كنت بهذا الناقوس أشبه! طهرني الألم كما طهره اللهب، وحركت الأوتار المختلفة أوتار قلبي فأخرجت لكل عاطفة نغمة!

* * *

أنا كالقيثارة (الايولية)[1] تعزف طول الليل من تلقاء نفسها على خطرات النسيم، وتمزج خرير المياه بأنينها الرخيم،

(١) نسبة الى ايول (Eole) وهو في اساطير اليونان والرومان اله الهواء وابن جوبتير. وهذا الضرب من القيثارات ينصب في الهواء فيعزف وحده على هبوبه

فيقف السائر حيران دهشاً مما يسمع ! يطرب ويعجب ولا يدري مصدر هذه الزفرات المقدسة !

* * *

فيثارتي تحفل غالباً بالدموع ! وما الدموع للمرء إلا كندى السماء للأرض ! وهيهات أن ينضج القلب تحت السماء الصافية ! فالكأس المصدوعة يسيل منها عصير الكروم، والريحان الذابل إذا وطئته قدماك ، تضوّع شذاه بين خطاك !

* * *

خلق الله نفسي من نغمة محرقة، فمن يتصل بها يحترق بلهبها ! فيا عجباً لمنحة القدر !! أنا أسرفت في الحب ومن ذلك الاسراف أموت ! ما لمست شيئاً قط إلا حال إلى رماد ! كذلك رجوم السماء الساقطة على أشجار الخلنج ، تنطفئ بعد أن تدمر كل شيء !

* * *

ولكن العمر ! لقد استوفى أجله . والمجد ! آه ! وما يعنيني من صدى نغمة باطلة تنتقل من عصر إلى عصر ، وسمعة كاللعبة البراقة تتحدر من جيل إلى جيل ؟ ! أيها الذين وعدهم المجد سلطان الغد ! استمعوا إلى هذا اللحن الذي يخرج من ثيارتي ! هل تجدون لرنينه أثراً في الآذان ، بعد ما حمله الهواء الى غير هذا المكان ؟!

* * *

شهد الله أني منذ حييت لم أذكر هذا الاسم العظيم الا بازدراء ، ولطالما عصرت هذه الكلمة التي اخترعها هذيان الانسان فلم أجد غير هواء ، هنالك لفظتها كما تلفظ الشفتان قشرة يابسة .

* * *

في سبيل هذا الأمل الخالب ، في هذا المجد الكاذب ، يرمي الانسان في مجرى الزمن اسمه وهو عابر ، فيتلقفه التيار، وتضعفه الأيام كلما سار ، حتى يصير حطاماً تعبث به أمواج الدهر ، ثم تحمله على غواربها من عصر إلى عصر ، حتى تلقي به في لجج النسيان !

* * *

أنا كذلك ألقي اسمي بين هذه الأسماء العائمة ، على هذه الأمواج المتلاطمة ، ثم اتركه على هوى الرياح والأمطار يطفو ويرسب ! فهل يكون بذلك شأني أعظم ومقامي أرفع ؟ ولماذا وكل ما هنالك اسم ؟ ! وهل تأل البجعة الطائرة في جو السماء اذا كان ظلها لا يزال طافياً على أديم هذه الغبراء ؟!

* * *

تسألني لماذا كنت أغني (١) ؟ سل البلبل لماذا تتجاوب أغاريده وأناشيد الجدول طول الليل ؟ ! أنا أنشد بأصحابي كما يتنفس الانسان، ويشدو العصفور، ويعزف الهواء، ويخر الماء !

* * *

الحب والدعاء والغناء ثلاث تقتسمن كل حياتي ! . . ولم آسَ ساعة الموت على فائت مما يتشوف اليه الناس في دنياهم إلا على زفرة حارة تتصعّد الى الله ، وسكرة طروبة تهبط من القيثار ، وصمتة عاشقة تعمق حين يتعانق قلب وقلب !

* * *

إن مثلك خاشعاً أمام الجمال تسمع رجفان أوتار المزهر ، وترى حديث الهوى يمتزج مع أنغامه ، يسري في حشاك ، وتستقطر الدموع من العين المعبودة كما يستقطر النسيم اندا الفجر من الزهرة المطلولة . . .

* * *

وترى طرفها الشاكي يصّعد حزيناً في السماء كأنما يطير مع النغم ، ثم يرتد واقعاً عليك وهو بالحرارة العفيفة يجيش، وتبصر من خلال أهدابها المسبلة شعاع نفسها كالنار المضطربة في حلك الليل البهيم . . .

* * *

وترى ظلال أفكارها على جبينها الزاهر تطوف ، والكلام على شفتيها المثقلتين يموت ، ثم تسمع بعد هذا الصمت الطويل هذه الكلمة ترن حتى تبلغ أذن الجوزاء ! هذه الكلمة كلمة الآلهة والناس هي : « اني أحبك ! »

ذلك هو الذي يساوي في الحياة زفرة !!

---

(١) يريد بالغناء الشعر

زفرة ! ! حسرة ! ! كلام لا معنى له !

على جناح الموت، روحي تطير الى السماء ! تطير الى حيث ترى العين شعاع الأمل يضيء ! تطير الى حيث طارت النغمة التي خرجت من مزهري ! تطير الى حيث صعدت جميع زفراتي !

الايمان — وهو عين الروح — قد اخترق ظلماتي كما يخترق عين العصفور ماوراء الظلال الحزينة . ثم باحت لي غريزته النبوية بما استتر من حظي ! وكم مرة اقتحمت نفسي آفاق المستقبل حتى بلغت السماء محمولة على أجنحة اللهيب، فتقدمت بذلك الموت !

لا تنقشوا اسمي على قبري الكئيب العابس ، ولا تثقلوا بالبناء ظلي الخفيف ، إن قليلا من الرمل يكفيني ! لست والأسفاه حريصاً ولا غيوراً ! ثم لا تتركوا من الفراغ أمام القبر إلا مقدار مايضع الزائر العابر ركبتيه !

حطموا هذا المزهر وذروا حطامه في الهواء والماء واللهب فانه لم يجاوب أهازيج النفس إلا بنغمة واحدة ! ان مزهر الساروفين [1] يرتجف تحت أناملي ! وعما قليل أعيش معهم في عالم النغمات ، وأقود بقيثارتي ألحان السموات !

وعما قليل ! ! ان يد الموت الثقيلة قد قطعت الوتر !

انقطع بعد أن أرسل في أمواج الهواء . نغمة شاكية صماء . صمت مزهري البارد يارفاق ! فخذوا مزاهركم، وأدخلوا نفسي عالم البقاء . بين خفق الأوتار وترجيع الغناء ! . .

(١) الساروفين : طائفة من الملائكة

العراق كما رأيته

كتاب تحت الطبع سننشر منه فصولا في اعداد الرسالة الآتية .

احمد حسن الزيات

بيت الراعي

للشاعر الفرنسي الفريد دي فني

مهداة من المترجم الى الأستاذ الجليل احمد لطفي السيد بك

الى إيفا [1]

— ١ —

إذا كان قلبك وهو يتخبط عانياً كالنسر الجريح ـ لفرط ما أبهظته الحياة ـ قد قضى عليه أن يحمل كقلبي فوق جناحه المهيض عالماً بارداً مضنياً !

اذا كان لا يخفق بغير تزيف جرحه الأبدي ، وقد أصبح لا يرى الحب : نجمه الصادق ينير له الأفق المتلاشي !

— ٢ —

اذا كانت نفسك المكبلة كنفسي ، قد أضناها الأغلال ومر الطعام ، فتركت المجداف فوق زورقها المنحوس . وأضلت برأسها المستقيم باكية على صفحة الماء باحثة وسط الأمواج عن طريق مجهول ، فرأت ـ وهي ترتعد ـ كلمة الجماعة مرقومة فوق كفها بالحديد ! [2]

— ٣ —

اذا كان جسمك الحي الرعديد تخجله النظرات . وهو يضطرب بالأهواء الدفينة !

---

(١) ايفا اسم امراة يهدي اليها الشاعر قصيدته كما اهدى اليها قصيدة أخرى هي « الروح الخالصة » الا أن حقيقة هذه المراة التاريخية غير متفق عليها . فمن النقاد « كبول بورجيه » من يذهب الى انه اسم يرمز به الشاعر للمراة على الاطلاق . ومنهم من قال بل هي زوجته ، ومنهم من قال بل هي مدام درفال الممثلة المعروفة . وقد كانت معشوقة الشاعر . وقد اشرنا الى ذلك في المقال الذي نشرته مجلة الجامعة المصرية لنا في العام الماضي عن دي فني

(٢) يشير الشاعر في هذه الفقرة الى عقوبة قديمة . كان يحكم فيها على المذنب بالتجديف في قارب باستمرار . فهو يشبه النفس في نزاعها مع صروف الحياة بتلك العقوبة اذ لا يستطيع الفرار وكيف السبيل وهو يحمل فوق كتفه كلمة الجماعة . ويعني بها الشاعر من ناحية المذنب ختم السجن ، ومن ناحية النفس الأوضاع الاجتماعية .

اذا كان يبحث بخاله عن حرم مصون بحكم إخفاه، عن المستهتر الجارح!

اذا كانت شفتك تجففها سموم الكذب وجبهتك الحيلة تحمر خجلا اذا مرت بأحلام مجهول غير عفيف. يراك أو يسمعك!

— ٤ —

اذا فارحلي بشجاعة[1] اهجري المدن، لاتدنسي بعد اليوم قدميك بغبار الطريق، أشرفي من سماء أفكارنا على المدن الذليلة كأنها صخور القدر لاستعباد البشر! الغابات المترامية والحقول، المنبسطة ملاجئ فسيحة طليقة، كأنها البحر يحيط بجزر معتمة. سيري بين الحقول ويمينك زهرة!

— ٥ —

الطبيعة تنتظرك في صمت رهيب، العشب يرسل فوق قدميك سحابة الماء، وزفرة الوداع التي ترسلها الشمس فوق الأرض تحرك زهر الزنبق، فكأنه المباخر. الغابة قد نقبت صفوف أشجارها المترامية، وها هو الجبل يختفي والسيسبان ينشر مقاعده العفيفة فوق الأمواج الناصلة[2]

— ٦ —

ها هو ذا الشفق المحب يتوسد الكرى وسط الوادي، فوق زمرد العشب، وذهب الحشائش. تحت القصب الحية، في المجرى المنعزل، وتحت غابة الأحلام التي ترتعد في الأفق. هاهو يتمايل متسللا وسط عناقيد الزهور البرية، يلقي معطفه الرمادي فوق شواطئ المياه، ويشق عند ظهور الليل باب سجنها!

— ٧ —

فوق جبل قصب كثيف لا تستطيع أقدام الصائد أن تتخلله. يرفع رأسه الجامح الى ما فوق جباهنا. ويؤوي في الليل الراعي والغريب. تعالى أخف فيه حبك وخطيئتك المقدسة[1]. فاذا اضطرب أو لم يكن علوه كافياً شيدت لك بيت الراعي!

— ٨ —

يسير الهوينا على عجلاته الأربع. سقفه لا يعلو فوق جبهتك وعينيك سيسبغ الياقوت وخدك على عربة الليل لونهما! المدخل عاطر والمخدع واسع معتم. هنالك بين الأزهار ستتخذ وسط الظلال فراشا صامتا لشعرنا المجتمع!

— ٩ —

سأزور إن أردت بلاد الجليد. هنالك حيث يشع نجم الحب؟ ويلتهب! هنالك حيث تصطدم الرياح ويحاصرها الجليد! هنالك حيث يختفي القطب تحت الثلوج. سنسير كما تشاء المصادفات الى غير سبيل مقرر. وفيم اهتمامي بالزمان؟ وفيم اهتمامي بالمكان؟ سأقول جميلا ما تراه عيناك جميلا!

— ١٠ —

ليهد الله ذلك البخار الصاعق إلى غايته فوق تلك القضب الحديدية، التي تخترق الجبال ليقم ملك كريم على ذلك الموقد الصاخب عند مايذيب تحت الأرض أو يهز بجبروته القناطر. عند ما يخترق المدن بأسنان نيرانه التي تلتهم المراجل أوعندما يقفز الأبخار بوثبات أسرع من وثبات الوعل، وقد حما قفزه!

---

(١) لفت نظر القارىء الى ان الجواب على الفقرات الثلاث الأولى هو قوله « اذا فارحلي بشجاعة » والقارىء يلاحظ ان الشاعر تكلم في الفقرة الأولى عن القلب وفي الثانية عن النفس وفي الثالثة عن الجسم. ثم أجاب في الرابعة عليها فهو يقول اذا كان قلبك أمره ماوصفت ونفسك كذلك وجسمك أيضاً اذا فارحلي بشجاعة... الخ

(٢) هذا تشبيه تمثيلي الا أن الشاعر حذف بعضا من المشبه لامكان ادراكه عقلا. هو يشبه حالة المدن وحولها الغابات والحقول بحالة أو هيئة الجزر وحولها مياه البحار

(١) فسر البعض قوله (خطيئتك المقدسة) على أن القول موجه لمدام دوفال حيث انها كانت متزوجة، فعدها للشاعر يعتبر خطيئة. ولست ادري لم يستطيع ان يفسرها من يقول: ان القول موجه للمرأة اطلاقا. او لزوجة دي في نفسها.

(٢) الراجح أن الشاعر يقصد القمر

(٣) تعتبر الفقرة الأخيرة من أول قوله « سسير » الى آخر الفقرة من احسن ما كتب الشعراء ولا شك ان القارىء يقدر ذلك

(٤) ابتداء من الفقرة العاشرة الى آخر الجزء الأول من القصيدة كما سيرى القارىء يتكلم الشاعر عن السكك الحديدية التي مد اول خط منها في فرنسا حوالي منتصف القرن التاسع عشر وقبل نشر هذه القصيدة بقليل وقد حدثت اثناء ذلك حادثة فظيعة

— ١١ —

مالم يسهر الملك ذو العينين الزرقاوين سى طريق البخار.
مالم يحلق فوقه وحميه وسيفه بيده . مالم يعد كل دفعة من دفعات الرافعة . مالم يستمع الى كل دورة من دورات العجلة فى رحلتها الجبارة . مالم يلق بيصره على الماء وبيده على النار كى يتهلل الموقد السحرى بالنصر . كفانا حجر صغير يلقيه طفل !(١)

— ١٢ —

لقد عجل الانسان بركوب ذلك الثور الحديدى الذى يدخن ويصفر ويخور ، وما يعلم أحد ماذا يحمل هذا الأعمى الخشن فى جوفه من زوابع عاصفة ! هاهو المسافر يسلمه راضياً كنوزه ! ويلقى اليه بولده العجوز وأبنائه رهائن كما كان يفعل الفينيقيون بما يقذفونه فى جوف ثورهم المشتعل ناراً ليرده ترابا يلقيه تحت أقدام إله الذهب (٢)

— ١٣ —

على أنه يجب أن نقهر الزمان والمكان. فاما تصروا ما موت التجار يتنافسون . والذهب يتساقط كالمطر من دخان البخار الذاهب ! الزمان والغاية هما العالم فى نظرنا ! كل يقول لنفسه هبا ، ولكن لاسلطان لأحد على ذلك ، النحس الذى اخترعه أحد العلماء ، انا نلعب بما هو أقوى منا جميعا !

— ١٤ —

وعلى كل ليختط كل شىء سبيله، وليخدم النظر العمل فيحمله على أجنحة النار ما اتسع رحاب قاطرات البائع لكل نبيل، وما خدمت شريف العواطف . لتحل البركة على التجارة ذات الرمز الموفق مادام الحب الذى يعبث بالمعقول قد أصبح فى مكنته أن يخترق فى يوم دولتين كبيرتين ! .

— ١٥ —

ومع هذا فما لم تكن إزاء صديق يرسل صيحات اليأس ، وحياته مهددة بالخطر ، أوأزاء فرنسا التى تدق البوق لتدعونا الى ساحات الوغى أواتصال العلم أو إزاء أم تحتضر فى سرير موتها ، وتود جاهدة أن تلقى ببصرها الرقيق الحزين على ذويها قبل أن تغمض عيناها الى الأبد!

هلك فيها خلق كثير مما حمل الشاعر على السخط عليها وتفضيل الرحلة بالعربات ذات الخيل ، وهو فى ذلك مدفوع بكرهة للمدنية وما تبتكره الميكانيكا من جهة ، ومن جهة أخرى بمزاجه الارستقراطى وبمزاجه الشاعرى ، الذى يفضل سكون العربه على ضجيج القطار وهذا الجزء من القصيدة للأسف ضعيف على خلاف الأجزاء الأخرى ، حيث تدفق أبياته بالمعانى الجميلة وأما هنا فلا ترى الا تشبيهاً ضعيفاً والامعان وعبارات لا شعر فيها ولا خيال لتحليلها فوق ما يجب إلى عالم الوقائع . هذا الى ما يحيط بها من غموض يفسد مبناها ويذهب بجمالها ولنضرب لذلك مثلا تشبيه القطار بالثور وما الى ذلك ، مايراه القارىء فى النص الذى حافظنا عليه فى النقل بكل ما استطعنا لنقل الشعر بقوته وضعيفه

(١) يريد الشاعر ان يقول انه مالم يسهر ملك على السكة الحديدية . . . الخ لكفانا حجر صغير يلقيه طفل تحت القطار لحدوث الحوادث المروعة . فالشاعر ترك بقية الفكرة لامكان ادراكها عقلا

(٢) نقف قليلا عند هذه الفقرة من أول قوله ، ويلقى اليه والده العجوز الى آخر الفقرة لنحللها قليلا مظهرين ما فيها من غموض فاولا يلاحظ القارىء انا أمام عدة تشبيهات مزجها الشاعر مزجاً غير مفهوم فهو أولا يشبه والد المسافر وابناءه ، وان شئت قل للوضوح ركاب القطار برهائن الحرب التى كانت تقدم من العدو لعدوه عند المدنة ضماناً لتنفيذ شروط الصلح فان لم ينفذ المتعاقد ماقبله من شروط أعدم خصمه ما استله رهناً من أشخاص هناك معنى المقامرة على حياة هؤلاء الاشخاص وكذلك الأمر فى ركاب القطار فما يعلم أحد ايصلون سالمين أم لا وهو ثانياً يشبه نفس الركاب بالضحايا التى كان الفينيقيون يقدمونها لالههم بعل المسمى مالوك ثم هو يشبه قطار السكة الحديدية بثور قرطاجنه الا أنه — وهذا مصدر الغموض — يقول ان المسافر يقدم أبناءه وآباءه رهائن الى القطار كما كان الفينيقيون يقذفون بالبشر أحياء فى جوف ثورهم مع أن الفينيقيين ما كانوا يقدمون البشر كرهائن بل كضحايا ثم قال ليرده ترابا يلقيه تحت أقدام إله الذهب . وقوله هذا يجوز كما هو فى الأصل الفرنسى وبالتالى فى الترجمة — أن ينصرف كل من الاله بعل والقطار مع أنه لا يقصد الا القطار . فالقطار وحده هو الذى يهلك الناس فى سبيل الذهب عندما ينقل البضائع من مكان الى آخر . ونضيف الى ذلك أن إله قرطاجنه لم يكن كما ظن الشاعر على شكل الثور ، بل على شكل زاحفة كبيرة وانما تجده مقصوراً على شكل ثور عند اليهود فقط . وهذا بعد زمن الفينيقيين بكثير .

البقية على ص ٣٣